الفصل الخامس
صدام الحضارات والمواجهة
مع الصهيونية

في مواجهة المفاهيم

1 ـ مفهوم الموت .

2 ـ مفهوم الرعب .

3 ـ مفهوم التبرير الديني للإجرام المرضي .

4 ـ مفهوم القوانين التوراتية والتطبيق النازي لجيش صهيون .

5 ـ مفهوم أرض الميعاد في مواجهة حق العودة .

والمواجهة مع الصهيونية أولاً:

مما لاشك فيه أن أي صدام بين الشعوب أو بين الحضارة والتكنولوجيا ستكون فيه الصهيونية الطرف الأبرز، وذلك بسبب ما تحمله هذه الحركة من أفكار دينية عنصرية، وتنظيرات إرهابية متميزة، وباعتبار أن الكيان الصهيوني يمثل ثقل هذه المرحلة العملي على الأرض فإن المواجهة الأساسية في الكون ستكون من هذه المنطقة التي يحتلها الصهاينة، ويقيمون فيها أكبر قوة طغيانية بعد الولايات المتحدة الأمريكية.

ولا يمكن أن تخرج الصهيونية من المعادلة، فالصدام الحضاري الإنساني على مدى التاريخ ما كان ليحصل لولا وجود اليهود، وفاعليتهم المتشعبة في الأمم والشعوب وخاصة الشعوب الغربية، وقد مثلوا عبر التاريخ الطويل وجه الشر الأشرس، وبؤرة الإفساد العالمي على كافة المستويات السياسية والمالية والأخلاقية.

وقد قُدر أن يكون العرب وخاصة الفلسطينيون في المواجهة الأولى مع الصهيونية التي يمثل ثقلها الكيان الصهيوني.

وإذا نظرنا إلى الصراع بدقائقه نرى أنه صراع يلف بين دفتيه عشرات الأمور، بدءاً بالمفاهيم الفكرية ومروراً بأبعاد الصراع الدينية والعسكرية والنفسية وغيرها، وانتهاءً بمفهوم صراع الوجود والبقاء الذي يحتم إلغاء أحد الطرفين إلغاءً كلياً من فلسطين.

ففي ظل هذه المواجهة برزت مفاهيم كثيرة تحدد طبيعة الشخصيتين المتصارعتين أي: الصهاينة من جهة والفلسطينيين من جهة أخرى - فهي تنبش في الماضي وتُظهره على السطح، تستحضر التاريخ والعقيدة وتربطهما بمجريات الصراع الحالي، وتنبعث مفردات كثيرة من المفاهيم والأفكار، وتؤطر أبسط الأمور وأعقدها في إطار هذا الاستحضار الذي يشهد صراعاً دموياً لم يشهده التاريخ من قبل.

أرض فلسطين هي محور الصراع بما لها من أبعاد تاريخية وعقيدية، وبما لها من موقع روحي ومادي واستيراتيجي.

الكيان الصهيوني قوة عسكرية ضخمة تمده أمريكا بكل مقومات القوة والتفوق والهيمنة، والشعب الفلسطيني يرى أن من حقه وواجبه الديني والتاريخي أن يقاتل بكل الوسائل المتاحة والمبتكرة حتى يحافظ على وجوده وبقائه فوق أرضه التاريخية والدينية والاستراتيجية.

الكيان الصهيوني يريد إلغاء هذا الشعب الفلسطيني من الوجود بكل الوسائل من تصفيات وترحيل وتدمير، والشعب الفلسطيني يريد إلغاء الاحتلال ووجوده الاستعماري من أرضه، ولاشك أن المواجهة الدموية تستحضر كافة وسائل الصراع العسكرية والفكرية والإعلامية وغيرها.

أ. أول المفاهيم:

مفهوم الموت في إطار الصراع

قد يتساءل بعضنا ما العلاقة بين هذا العنوان وبين الموضوع الكلي صدام الحضارات؟

لاشك أن هذا العنوان يوحي ببحث فلسفي فكري ليس له علاقة فيما نطرح، لكننا اعتبرنا منذ عنوان الفصل الخامس أي: هذا الفصل الذي نكتب فيه أن هناك صراعاً جارياً وحتمياً مع الصهيونية وقلنا: إن الصهيونية هي الوجه الشرس الأول للعولمة، وهي طليعة القوى الشريرة في صدام الحضارات، ولا نريد هنا أن نتحدث عن الصراع مع الكيان الصهيوني في جانبه العسكري فحسب، أو جانبه الاقتصادي، إنما نريد أن نبحث فيما حاول الكثيرون تغييبه عن العقول.

والواقع أن هناك عدداً من المفاهيم التي تدخل في صلب الصراع، وأول هذه المفاهيم مفهوم الموت باعتباره أهم ما يسيطر على الشعور الشخصي للفرد خاصة الذي قد غرق في قلب الصراع الدموي.

متى يكون الموت قبيحاً؟ متى يكون الموت جميلاً؟ ماذا يعني مفهوم الموت في إطار الصراع؟

لا شك أن الموت كحالة وجودية شغلت الإنسان منذ خلقه الأول، ولسنا هنا بصدد ظاهرة الموت كما فهمتها الحضارات القديمة والفلسفات والديانات التي عرفناها من خلال قراءاتنا وإحساساتنا الدينية ومحاكماتنا العقلية.

فنحن هنا أمام نموذجين من نماذج الصراع القائم والمرشح ليكون واحداً من أهم عناصر الصدام بين الغرب والشرق، نحن هنا أمام شخصيتين، ندرس الأبعاد النفسية والفكرية والعقيدية للموت فيهما، وأقول فيهما لأننا معنيون بالدخول عميقاً متجاوزين المظاهر الشكلية وأنماط التعبير، الدخول في المكون الفلسفي للموت وكذلك المكوّن العقيدي، وأخيراً المكوّن السلوكي الذي هو ترجمة حقيقية لتلك الفلسفة أو تلك العقيدة.

إن أمامنا شخصية اليهودي الصهيوني الذي خبرناه عن قرب من خلال صراعنا معه منذ أن احتل أراضينا، وأمامنا شخصية الإنسان العربي وهو لا يكل ولا يمل من التقدم للدفاع عن هويته وأرضه مهما كانت الوسائل ضعيفة.

كلا الشخصيتين تقعان في دائرة السؤال عن فهم كل منهما للموت وأثر هذا الفهم على السلوك الصدامي المستمر منذ أكثر من خمسين عاماً والذي يتجلى عنفه هذه الأيام - من عام 2002 - بما يحدث في فلسطين من اجتياح صهيوني ورد استشهادي عليه، ومن الطبيعي ونحن في هذا الإطار أن نبتعد عن الشعارات والعواطف، ونقترب إلى التحليل حتى نصل إلى فهم حقيقي لبنية هاتين الشخصيتين النفسية والفكرية والعقيدية.

كيف تنظر الشخصية اليهودية الصهيونية للموت؟

من المعروف أن الموت والحياة يصنعان لدى أي إنسان موقفاً، ولكن هذا الموقف يتشكل عبر نماذج من التربية، قد تكون دينية وقد تكون فكرية، وربما تكون مادية ليس لها علاقة بالأبعاد الروحية أو النفسية.

والشخصية اليهودية تلقت تربية عقيدية فكرية نفسية أوصلتها إلى موقف محدد من الموت، هذا الموقف لا يتغير ولا يتبدل لأنه عجن مع الشخصية حتى أصبح أهم سماتها، أما في الجانب العقيدي فقد ركزت التوراة وكذلك التلمود على السمة

الخاصة لليهودي، فهو من شعب الله المختار، بل هو أهم من الملائكة حسب التلمود، وهو يتماهى مع الله حتى يصبح في حل من الخضوع لقوانينيه وناموسه، إذن ما معنى الموت وأي شيء بعد الموت؟

فمن خلال نصوص التوراة نرى أن الإله التوراتي يعد الشعب اليهودي المختار بأرض السمن والعسل والفردوس الأرضي المسمى أرض الميعاد، فإذا ما تحقق وجود اليهودي في هذه الأرض يعني أنه حقق وجوده في فردوسه، ورضي الله عنه، فهو لذلك لن يطمح إلى شيء آخر، حياته الخالدة هنا وليس في مكان آخر، لذلك هو حريص على أن يبقى حياً ولو عمّر ألف سنة.

لقد بث كتبة التوراة في أسفارها الكثير من التعاليم التي تنكر أي حياة أخرى، وقد جاء في سفر أيوب أن الإنسان عندما يموت يذهب إلى قعر الصل (الوحل) ليس أكثر، فليس هناك حياة أخرى أجمل أو أقبح، وعلى الرغم من القناعة الراسخة أن الموت لا بد حاصل إلا أن الشخصية اليهودية تعتبر هذا الموت بمنزلة النهاية النهائية لها، وعلى ذلك فإن الاستفادة من الوجود الدنيوي يجب أن يصل إلى أقصى درجاته، على اليهودي أن يتمتع بالدنيا حلالها وحرامها بكل ما أوتي من قوة، لأنها هي الفردوس وليس سواه، وهنا فإن الموت يعني القضاء على التمتع بالدنيا، القضاء على النعيم الجسدي والنفسي، ولذلك فإن الموت يصبح العدو الأول للشخصية اليهودية، فهو مكروه وهو قبيح بكل ما تعني الكلمة من معنى، ولعلك حين تذكر كلمة الموت أمام تلك الشخصية فإنها إما تتوتر أعصابها حتى تصل حد الجنون، وإما أن تتخاذل فتسقط منهارة أمام أول مواجهة يفترض فيها الموت، وقد عملت التربية الصهيونية كل جهودها كي تتوتر الشخصية اليهودية حين ذكرها للموت لأن هذا التوتر يعني الجنون، وعندما يمتلك المجنون أقوى أنواع الأسلحة فإن ذلك يعني أن القتل والتدمير والتعذيب والتخريب هو حق لهذا المجنون، ولذلك نرى الجنود الصهاينة يقتلون الأطفال والشيوخ والنساء ليعبروا عن توتر عصبي جنوني عالٍ سببه ترقب الموت أو توقع حصوله في كل لحظة.

وتصبح المعادلة لدى هذه الشخصية اقتل قبل أن تموت، اقتل حتى تحافظ على فردوس حياتك، ولعل هذه المعادلة تخيم بظلالها على معظم أفراد التجمع الصهيوني إن لم نقل كلهم.

فالجندي أو المستوطن الذي يقتل يشكل قتله حالة نفسية سوداء لدى الجميع لأنهم يعتبرون الموت نهاية المطاف، وهذه بحد ذاتها تشكل في النفس اليهودية الصهيونية أكبر خسارة في الحياة اليهودية، إن الجميع يبكون والجميع يولولون، ليس حزناً على فراق فحسب، إنما على تلاشي الأمل كلياً واللاعودة نهائياً ولو حتى في مخيلة الغيب.

وما يُرى من انعكاس موت جندي صهيوني أو مستوطن على المؤسسة الحاكمة في الكيان يدلل بشكل ما على مدى فاعلية عقدة الموت في الشخصية اليهودية، إن مقتل أقل من عشرين صهيونياً في مواجهات بضعة أشهر أدت إلى تخبط واضح في التجمع الصهيوني وأحزابه وحركاته ومؤسساته، وبعد أكثر من سنة ونصف على المواجهات مع الكيان الصهيوني ازداد عدد القتلى الصهاينة بشكل أرعب جميع من في الكيان، وهذا أهم سبب دفع شارون للقيام باجتياح جديد للضفة والقطاع، والموت الذي ينال الجيش والمستوطنين قد يدفع إلى تغيير الحكومة لولا أن شارون أدرك أنه لا بد من القيام بعملية عسكرية واسعة النطاق حتى يدرأ سقوطه.

وهذا الوجه من الحالة يدفع السلطة الصهيونية إلى مزيد من القتل والتدمير والإعدامات الجماعية والتصفيات الواسعة، فبحسب استراتيجية الفكرة الصهيونية يجب أن يموت العربي ولا يموت الصهيوني، يجب أن تنهى حياة العربي لأنها رخيصة بينما يجب أن يُحافَظ على حياة اليهودي لأنها مقدسة إلى أعلى درجات التقديس لأنه لا تعويض عنها إذا فُقدت وتلاشت.

أما الوجه الآخر للموت في إطار هذا الصراع، أما متى يكون الموت جميلاً فهذا يقودنا إلى دراسة الشخصية العربية وهي تواجه الطرف الصهيوني.

صحيح أن العربي في فلسطين لا يمتلك ما يمتلكه جيش الاحتلال والمستوطنين ولا يمتلك العتاد الذي يصل إلى السلاح النووي والبندقية المزودة باللايزر والأشعة تحت الحمراء، لكنه يستمر بالاندفاع للمواجهة.

قالوا: إن الأمهات الفلسطينيات يدفعن أبناءهن إلى الموت لأنهن مجنونات.

طبيعي أن نسمع هذه الأحكام الصادرة عن أناس لا يفهمون من الموت سوى التلاشي والنهاية الأبدية، فهم لا يفهمون أن للموت فلسفة وضعية لدى اليهود، وأن للموت عقيدة سماوية لدى العربي، فحتى العربي العلماني الذي لا يؤمن بالغيبيات يرى في موت الإنسان العربي وهو يتصدى للصهاينة شهادة تفوق قيمتها كثيراً من القيم، شهادة لو حللت معناها ترى أنها ترتبط بمفهوم خاص جداً لم يفهمه ولن يفهمه إلا من كان على تماس مباشر بمفردات العقيدة التوحيدية التي تميزت بها المنطقة العربية دون سواها.

وعودة إلى السؤال الذي ينتظر جواباً نقول: إن العربي كأي شخص في الوجود صنعت العقيدة الإسلامية وكذلك التاريخ فيه موقفاً وجودياً من الموت، هذا الموقف يتلخص في أن الموت نقلة إلى حياة أخرى، إلى حياة أجمل يكون سبيلها التضحية والانتقال من العناء إلى الرضا والراحة، انتقال إلى الضمير السعيد الذي يعرف أن ما قدمه من جسد على مذبح الكرامة هو ارتقاء فوق الماديات والمغريات، فوق أقصى درجات النعيم الدنيوي والسعادة الجسدية المؤقتة.

لماذا يندفع الإنسان المسلم يومياً ليواجه الرصاص والقتل؟ هل لأن حياته رخيصة؟ وهل تدفع الأمهات أبناءهن إلى المواجهة والموت بسبب كراهية للأبناء والتخلص منهم؟ أم أن الذي يندفع تربى في منزله على فهم عقيدي خاص لمعنى الشهادة وكذلك في مدرسته ومسجده، ما الذي يعنيه أن تبعث والدة الشهيد محمد فرحات لينفذ عملية استشهادية ضد العدو الصهيوني وتخرج على شاشات التلفاز لتروي قصة الليلة التي قضتها معه وهي توصيه، ثم تروي قصة وداعها له وانتظارها حتى تسمع خبر العملية الناجحة التي نفذها، واستشهد فيها، ثم تتحدث باعتزاز

بشهادة ابنها واحتسابها عند الله سبحانه وتعالى، وقس على ذلك أمهات أخريات من شعب فلسطين!!

ألم يصبح مفهوم الشهادة على مدى أربعة عشر قرناً مقترناً بمعنى الجهاد والمجاهدة، ألم ترتبط هذه التربية العقيدية بشخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشخصية المسيح ـ عليه السلام ـ والأنبياء الذين جاهدوا ضد الجبروت والطغيان والظلم، إذاً لماذا جاهدوا؟ لماذا أقبلوا على الموت الجميل ورفضوا الموت القبيح؟ أليس ذلك مدعاة للتساؤل ومراجعة الأقوال والأفعال، لقد تعلم العربي والمسلم وهو يواجه المحتل أن من يطلب الموت توهب له الحياة، أليس في ظاهر النص تناقض صارخ؟

نعم إنه تناقض إذا توقفنا عند حدود اللغة دون ظلال ودون عودة كاملة إلى حقيقة هذا الفهم وحقيقة مستنداته العقيدية.

عندما تقف الشخصية اليهودية الصهيونية وكذلك الشخصية العربية الإسلامية أمام الموت فإن الصورة تختلف وتتناقض تناقضاً كلياً، فالصهيوني يرى الموت أسود كالوحش المفترس، يراه أقبح صورة يمكن أن يتخيلها العقل، فلذلك يحاول أن يتحصن وراء سلاحه المتطور ووراء السترة المعدنية الواقية، ووراء دبابته جيدة التسليح والتصفيح، لا يستطيع المواجهة المباشرة لأنه يرى في الحجر صرخة موت، ويدرك أن لحظة الموت لا يجب أن تأتي ولا يجب أن تقع، فلذلك يقدم على القتل للطرف الآخر دون أي اعتبار لشيء إلا ما كان فيه بقاؤه حياً.

أما الشخصية المسلمة المؤمنة المترسخة فيها عقيدة الجهاد ضد الظلم والاستعباد فإنها تقبل على الموت وهي تراه صديقاً حميماً سوف ينقلها إلى الحياة الأفضل، فلذلك يندفع دون دبابة مسلحة ولا يتخفى متمترساً وراء الساتر الإسمنتي المسلح، وليس على صوره سترة معدنية واقية، وبمعنى آخر يرى الموت قادماً في أي لحظة فليكن طالما أن هذا الموت قادم عاجلاً أم آجلاً، وليكن الموت عزيزاً كريماً وليس ذليلاً خجولاً.

ونعتقد أن التاريخ الذي يتمثله المسلم في وجدانه ليس تاريخ جبناء تحصنوا وراء قلاع وانكفؤوا وراء أنفسهم، إنما هو تاريخ مجاهدين، قدموا قوافل الشهداء دون توقف حتى حققوا في زمانهم إنسانية الإنسان وكرامة البشرية، ولم تكن أهدافهم منحصرة في دائرة الدنيا، وإلا لكانوا اكتفوا بما حصّلوه من كنوز الأرض، إلا أنهم اندفعوا ليرسموا معالم القيم والمبادئ السامية انطلاقاً من موقف ثابت يرى في الحياة الدنيا طريقاً إلى الآخرة، ولم يروا الموت نهاية النهايات، وهكذا يمكن لنا أن نرسم معالم الشخصيتين في دائرة الصراع الطويل، ولكننا حتى لا نكون ديماغوجيين نرى الصراع الدموي الحاصل بين العرب أصحاب عقيدة الجهاد وبين اليهود الصهاينة المحتلين الغاصبين لن يكون قصير المدى ولكنه وعلى الرغم مما نشاهده من اجتياحات وقتل وتدمير سيحسم لصالح من يرون الموت جميلاً، ولن يكون لصالح من يرون الموت قبيحاً، وهذه معادلة إن لم نحس بها اليوم بكل معالمها سوف يكون لها وضوح المعالم كلها، ويكفي أن نتذكر المجاهد الصحابي الذي اخترق سهم صدره فصاح بأعلى صوته، فزت ورب الكعبة، فما معنى الفوز وهو يلفظ النفس الأخير، أندري ظلال هذا الفوز أم لسنا معنيين أن نفهم؟

ثانياً: فلسفة الرعب مفهومٌ لتعديل ميزان القوى:

وإذا كان الموت من أهم المفاهيم التي تسيطر على الشخصيات المتصارعة وخاصة الشخصية الصهيونية، والشخصية العربية الفلسطينية في مسار الصراع، فإن مفهوماً آخر لا يقل عنه أهمية يلعب دوراً حساساً وهاماً في هذا الصراع الدائر والمستمر، وهذا المفهوم هو الرعب بكل ما يعنيه من معنى فلسفي نفسي.

ومن المعروف أن شيئاً من الرعب يستطيع أن يشل عدوك ويربكه ويفقده توازنه مهما كان يمتلك من أسلحة تفوق أسلحتك كماً ونوعاً.

من أين يأتي الرعب؟ هل هو دافع حقيقي أم مكتسب؟ ما علاقة هذا الرعب بمصير المخلوقات؟من ينظر إلى واقع الأمور التي تحدث في الصراع العربي الصهيوني لا بد له أن يتوقف طويلاً عند بعض المظاهر النفسية والاجتماعية السلوكية التي برزت في التجمع الصهيوني من جهة، وفي المجتمع العربي الفلسطيني من جهة أخرى.

في إحدى الحالات تصل في يوم واحد ألف مكالمة هاتفية إلى مراكز الشرطة والأمن في نهاريا وحيفا والخضيرة وتل الربيع وغيرها من المدن، جميعها تصرخ بأن (انتحارياً) مر في الشارع يحمل عبوات ناسفة أو قنابل أو حزمة متفجرة يتخنصر بها، ويهرع رجال الأمن هناك وهنا، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن العذاب النفسي مؤلم وشديد.

في جميع الطرقات والشوارع كل الناس يتلفتون يمنة ويسرة وإلى الخلف وإلى فوق وتحت يسيرون كمن يتخبطهم الشيطان.

رجال الأمن يشتبهون برجل يلبس ثياب حاخام ويوسعونه ضرباً، وهو يقسم أنه حاخام، يحاولون انتزاع لحيته ظناً منهم أنها مستعارة، فيصرخ لست إرهابياً لست مخرباً، وبلغة عبرية واضحة.

وبعد جهد يتأكدون من هويته فيطلقون سراحه، ويهرعون يفتشون عن غيره لعلهم يجدون ضالتهم المنشودة.

ومعلوم أن العمليات الاستشهادية التي وقعت تباعاً اخترقت كل الحواجز الأمنية الصهيونية، وشعر الصهاينة أنه لا يمكن القضاء على هذه الظاهرة، وبسبب ذلك سيطر الرعب الكامل على التجمع الصهيوني بحيث بات يظن كل فرد أنه سيكون ضحية لعملية استشهادية كالتي حدثت.

في المستوطنات الصغيرة والكبيرة تُغلق الأبواب، ويمنع الأولاد من النزول إلى الطرقات، مشرفو المدارس يوصدون النوافذ والبوابات الكبيرة، والمدرسون لا يعرفون ماذا يقدمون من مواد الدراسة، إضافة إلى هروب المئات من المستوطنين إلى المدن الداخلية، أو خارج الكيان، الجميع يترقب وينصت لعل انفجاراً يقع هنا أو جسماً بشرياً يتشظى هناك.

على بوابات العبور البنادق موجهة باتجاه راكبي الحافلات العرب وغير العرب، جندي واحد فقط يقترب من المواطنين يأخذ التصاريح والبطاقات ويعيدها، وبقية الجنود يصوبون البنادق والرصاص في بيت النار يكاد ينطلق، إشاعات هنا

وهناك فلا نوم ليلاً، أو عمل نهاراً، فإذا وقعت حاوية القمامة مصادفة من خلف عربة راح بعضهم يقفز من الشرفة لأن الصوت كان عالياً كصوت الانفجار.

وبالمقابل يزداد عدد الخيام عند الفلسطينيين الذين تنسف بيوتهم وبساتينهم ساعة وراء ساعة، وتعيد قصة التشريد الأولى عام (48) سيرتها من جديد، لكن الوضع مختلف تماماً فقد تساوى لدى الناس الموت والحياة... فلا فرق.

وباختصار فإن صاحب الوطن لا يرتعب ولا يخاف لأن الوطن موجود بأهله وليس بالغرباء، وهؤلاء الصهاينة الذين يعيشون حالة الرعب ليسوا أصحاب وطن، فهم غرباء مهما كذبوا.

من يتجذر في وطنه لا يرى في الاستشهاد أمراً مرعباً، فالوطن أمام الروح أغلى بكثير، وكذلك فإن أصحاب الحق في الأرض يتسارعون نحو الاستشهاد خوفاً على الوطن من الضياع، أما المرتعبون من الموت فيتسارعون إلى الاختباء في بروج مشيدة، ويلاحقهم الموت حتى لو ارتقوا إلى أبواب السماء بسلم، فلا الوطن المستعار يحميهم، ولا التزييف والتضليل يعيدان لهم الثقة بأنفسهم.

من هنا يمكن أن نعود إلى السؤال الأول هل تعدل فلسفة الرعب ميزان القوى؟ وهل دافع الرعب طبيعي أم مكتسب؟ ما علاقة هذا الرعب بمصير المخلوقات؟

منذ منتصف الخمسينات بدأ الصهاينة بمشروعهم النووي، وجميع الأوساط المختصة وغير المختصة تعرف أن الكيان الصهيوني يمتلك الآن أكثر من مائتي رأس نووي، بينما الفلسطينيون وجميع العرب لا يمتلكون رأساً نووياً واحداً.

إذن لماذا السلاح النووي؟:

وبعيداً عن استيراتيجية ما يسمى بالردع النووي، والقوة المتفوقة نرى أن أهم دافع لدى الصهاينة وراء تكديس السلاح النووي هو الرعب، الرعب الذي يتغلغل في خلايا العقل الصهيوني ودمه وشرايينه، يتغلغل في الشعور واللاشعور اليهودي التحريضي الذي يدرك صاحبه أنه بسبب جرائمه عبر التاريخ جعل جميع البشر يكرهونه ويربطونه بالشر الخالص، فهو من تشير إليه كل الأصابع بأنه قاتل الأنبياء، عدو الشعوب، عدو الخير، وبسبب ظنه أنه خير من المخلوقات جميعها وحتى

الملائكة والجن جعل كل المخلوقات تراه شاذاً في تفكيره وسلوكه، ولهذا قوقع نفسه في الرعب وراح يمتلك أسباب التدمير كلها في مواجهة الإنسانية جميعها.

إن هذا يقودنا إلى مسألة أخرى ترتبط بسابقتها ارتباطاً أساسياً، فلأن هذه الشخصية ترى نفسها فوق الجميع، ويكرهها الجميع، فهي لاشك أسيرة عقدة نفسية تقودها إلى ما يسمى المبالغة في القتل، فهي ليس لديها حرج بسبب قتل طفل أو امرأة أو شيخ، أو رجل دين، فهم والمقاتل سواء، والرعب المركب يدفع هذه الشخصية لقتل أي مخلوق أو إلحاق الضرر بأي عائق يقف في طريقها لتنفيذ جرائمها، ولهذا تقدم على اقتلاع الحجر والشجر، وتسميم المياه ونسف البيوت من جذورها، وما دامت أسيرة هذا الرعب فلا شك أنها تتخبط في كل اتجاه، وبعملية عكسية يستطيع صاحب الأرض تنويع مصادر الرعب، فكما هو موجود في أعماق هذه الشخصية يستطيع المدافع عن أرضه أن يرد برعب من نوع آخر، أو يستفز الرعب الكامن ليحوله خوفاً كبيراً مرتداً على العقل والسلوك والحياة اليومية لهذه الشخصية، وفي هذه الحال فإن تلاحق العمليات الاستشهادية يومياً وإيقاعها إصابات بالغة في صفوف الصهاينة ينقل دافع الرعب من الاندفاع إلى الأمام إلى التراجع والانكفاء إلى الخلف، وهذا ما لمسناه فعلاً على أرض الواقع في المعارك الدائرة في فلسطين.

مقتل الفلسطيني على يد قوات الاحتلال كان يتبعه قتل صهيوني على يد أبناء الانتفاضة، ثم ما لبث إلى تبديل الدور وترسيخه، بمعنى أن على المحتل أن يتوقع قتله في أي لحظة حتى لو لم يبادر هو أولاً بالقتل، وهذا هو الذي جعل عامل الرعب يلعب دوراً بارزاً في الصراع، فما عاد السلاح النووي ينفع في مثل هذه الحالة، ولا الأسلحة الفتاكة عادت تجدي في الرد على من تساوى لديه الموت بالحياة.

وما تبقى أمام الصهاينة هو فقط دفع كافة أفراد الجيش الصهيوني نظاميّيه واحتياطيّيه الذين يبلغون حوالي (300) ألف جندي إلى إعادة احتلال الضفة وغزة، وارتكاب أبشع المجازر الجماعية، وفرض حالة جديدة من الاحتلال المكثف، وعلى الرغم من ذلك فإن عامل الرعب سيبقى مهماً لدى الإنسان الفلسطيني في صراعه

المتجدد وغير المتوقف حتى لو أعاد الاحتلال كل جنوده وأسلحته إلى الضفة والقطاع.

وبمعنى آخر فإن الرعب الذي دفعهم لصنع السلاح النووي وتكديسه وكذلك لامتلاكهم أكبر ترسانة أسلحة في المنطقة أصبح رعباً من نوع آخر، الرعب من المفاجآت المتوقعة في كل لحظة، أو ما يسمونه بلغة علم النفس الانتباه كترقب، المفاجآت التي يظهر فيها استشهادي فجأة ويفجر جسده في عمق التجمع الصهيوني، ويحدث ما يحدث في جنود الاحتلال والمستوطنين، والمنشآت التجارية، وتجمعات حافلات الركاب، ولقد كنا نسمع تصريحات لزعماء الكيان وهم يبررون عجزهم أمام استشهادي الانتفاضة، ماذا نفعل إذا كان الذين نحاربهم يندفعون نحو الموت بجنون ومحبة ورغبة.

لقد ابتكر الصهاينة ما أوهمهم بأن الذي صنعوه سيجعلهم في أمان، وإذا بالرعب يصبح أقوى سلاح رادع، فسقطت قيمة السلاح النووي، وباتت القنبلة البشرية أخطر من كل الابتكارات العسكرية في المنطقة.

لقد كان عامل الرعب في الاستيراتيجية العسكرية الصهيونية من أهم العوامل التي أريد لها أن تضمن تدفق المستوطنين الجدد إلى فلسطين، وإذا بعامل الرعب المعاكس يدفع أكثر من مليون صهيوني للخروج من فلسطين والهجرة إلى بلاد أكثر أمناً وخالية من هذا الرعب.

وقد أريد لهذه الاستيراتيجية أن تحبط الإنسان العربي، وتجعله ينظر إلى نفسه نظرة دونية، وقد غفل الصهاينة على الرغم من كل دراساتهم عن الإنسان العربي عن جانب مهم في الشخصية العربية، وهذا الجانب هو المربط بفلسفة الاستشهاد إن صح التعبير، وهذه الفلسفة تلغي لديه فلسفة الرعب الذاتي، فهو في قرارة نفسه يدرك إدراكاً كبيراً راسخاً أن الدفاع عن الأرض والعرض والعقيدة والمبادئ والمقدسات لا يكون بلا ثمن، وأقل هذا الثمن أن يضحي بجسده رخيصاً لانتصار مبدئه وأهدافه.

وإذا وضعنا الشخصية الصهيونية تحت هذا المحك فإننا سنجد العكس تماماً.

ففلسفة الرعب الذاتي موجودة في هذه الشخصية في بعدها التوراتي الأسطوري، وفي بعدها الفلسفي الصهيوني الوضعي، وهذه الفلسفة أي: فلسفة الرعب تلغي لدى الشخصية الصهيونية فلسفة الاستشهاد، بل تكثف فلسفة الموت السوداء، وما بين الموت الأسود والاستشهاد فرق واسع شاسع، الموت نهاية المطاف، والاستشهاد بداية مطاف، ولكنهم لا يفهمون ذلك، ولا يريدون أن يفهموا ذلك، ولاشك أن الرعب الذاتي لا ينفصل عن حدث الموت، بل يمتزج فيه ليشكل حالة هاجس جنوني، وهذا ما يختزن في الشخصية الصهيونية، وهذا ما يطفو على السطح عند حالات المواجهة الحقيقية مع أصحاب الوطن، وهو ما نلمسه عن كثب في هذه الأوقات من صراع مع الصهاينة المحتلين.

ولا شك أيضاً أن الرعب الذاتي يصطدم بفلسفة الاستشهاد، فلا يستطيع الدخول إلى الشخصية لأنها محصنة بفلسفة قدرية لم يصنعها بشر، بل صنعها إيمان عقيدي ورسالة إلهية تجلت بشكل واضح في مفهوم الجهاد، والذي لم تعرفه أية عقيدة أخرى أو فلسفة وضعية مهما بلغت من عمق وانتشار.

الفلسفة الوضعية ترى الاستشهادي مجنوناً يقدم على الانتحار لأنها تتمثل البعد العقيدي ولم تلمسه ولم تحلله لأنها تستصعب تحليله، أما الحكمة الإلهية والقوانين الربانية فقد أوضحت أن نهاية كل مخلوق موت جسده، فإن كان لا بد من موت الجسد فلماذا يموت الإنسان عاجزاً سكونياً غير فاعل لا سيما إذا كان يتعرض يومياً للسلب والتعذيب والطرد والحصار والقصف والتدمير الجسدي والنفسي، ولسنا نرى أجمل وأروع من قوله تعالى وهو يصف حالة الصراع بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء 104].

وعود على بدء فإن رؤيتنا لواقع الصراع مع الاحتلال الصهيوني هو واقع أبعد مما يمتلك كل طرف من أسلحة، إنه واقع صراع الإرادات، صراع النفوس، صراع بين فلسفتين متناقضتين كلياً، وليس مستغرباً أن نطرح منذ البداية سؤالنا عن فلسفة الرعب وتعديلها لميزان القوى، نعم إنها تقول ميزان القوى، قنبلة الرعب ليست بضع شظايا تخترق الأجساد، أو قنبلة نووية تدمر المدن، وتقضي على الحياة المادية، قنبلة الرعب تميت النفوس والأعصاب، وتبقي الأجساد، تشل العقل وتبقي هيكل الدماغ متجسداً، تفقد الأطراف حركتها، وتفتك بأعصابها، وتبقي على دمها وعظمها ولحمها، فأي توازن للرعب يريدون؟ وأمام أي توازن للرعب يصمدون؟

ثالثاً: أزمة التبرير الديني للإجرام المرضي الصهيوني:

الإجرام كمفهوم ظاهرة عرفتها البشرية منذ قتل قابيل هابيل، والطبيعي في الإنسان إذا أقدم على جريمة قتل لا بد أن يندم لأنه أزهق روحاً، وسجن أخرى وعذبها.

والله الذي عرفته أكثر الأديان إله يحب الحياة ويحض على سلامتها، ويرفض منطق القتل والاعتداء والإجرام، ولأنه كذلك فقد كان من الطبيعي في الإنسان أن يلبي نداء الحق المطلق فيبتعد عن القتل ومسببات الإجرام والقتل.

وحين ندرس الشخصية اليهودية الصهيونية ومركباتها العقدية والتاريخية والنفسية نجد نمطاً فريداً من نوعه من الشخصيات نادراً ما نجد ما يشبهه أو يماثله في الكرة الأرضية، فالإجرام اليهودي ليس طبيعياً لأن ما يتبعه من ردة فعل لا ينم عن ندم أو أزمة ضمير بل العكس تماماً.

فما نجده في العقيدة التوراتية وكذلك التلمود والفكر الصهيوني الحديث يفصح عن حالة سعيدة لدى الشخصية اليهودية عندما تقتل أو تنفذ إجراماً دموياً بحق الآخرين.

لماذا تكون ردة الفعل حالة سعيدة؟

هل الخالق الذي تعرف عليه اليهود غير الخالق الذي تعرف عليه أصحاب الديانات الأخرى؟

هل يحض الإله على ارتكاب الجريمة؟

وهل يتلذذ بسفك الدماء؟

وهل في الشخصية اليهودية مخزون قديم لشخصية إله دموي شرير؟

هل خلق الإله التوراتي اليهود أم أن اليهود صنعوا إلههم على قدر مزاجهم وتطرفهم وميلهم الفطري إلى الإجرام؟

وهل جاءت تعاليم التلمود مكملة لتعاليم التوراة الحاضّة على القتل؟

وهل كانت تعاليم زعماء الحركة الصهيونية الحديثة سوى استمرار لمنهج التوراة الدموي ورؤية التلمود العنصرية الإجرامية؟

أسئلة كثيرة تفرضها المعطيات تفرضها الواقعية الشاهدة على الإجرام اليهودي الصهيوني المتميز والفريد من نوعه.

الإجرام اليهودي يصبح حالة مرضية مأزقه التبرير الديني التوراتي التلمودي وكذلك التبرير الفكري الصهيوني منذ هرتزل وحتى وقتنا الحاضر.

وما دام أن الإله التوراتي هو إله أصحاب التوراة، فإن الحالة الإجرامية ليست حالة فردية إنما هي حالة جماعية يهودية شاملة.

والواقع أن الديانة اليهودية تميزت عن غيرها بإيجاد تبرير إلهي للإجرام، فقد أخذ كاتبو التوراة وكذلك أنبياء التوراة (حسب ما صوروهم) على عاتقهم حماية وتبرير الإجرام باعتبارهم يمثلون الإله التوراتي يهوه.

وهذا التبرير ينسجم على أكمل وجه مع المشروع الديني السياسي، إذ ترى التوراة أنه لا يمكن تحقيق الطموح اليهودي إلا من خلال استخدام العنف الإجرامي مع الآخرين.

وحين نسير مع أسفار التوراة العبرانية نرى أن يهوه الإله القبلي اليهودي يحض على القتل والإجرام، ولا يفرق بين قتل الرجل أو الطفل أو البقر والماشية، ونستطيع أن نلحظ أن يهوه الذي صنعه اليهود يتلذذ حين يرى الدماء تجري وتزهق الأرواح (هكذا يقول يهوه رب الجنود) هكذا يقول يهوه: اذهب واضرب عماليق وحرموا كل

ماله ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة وطفلاً رضيعاً وبقراً وغنماً جملاً وحماراً) وهذا ما ورد في سفر صموئيل الأول من التوراة العبرانية.

وإذا تفحصنا سفر يشوع وهذا السفر الأول بعد أسفار موسى الخمسة نراه ملحمة إجرامية دموية، على الرغم من أن بعض الدارسين يرفضون ما جاء في هذا السفر ويعدونه متخيلاً، إلا أنه في الأحوال جميعها يفصح عن العقلية اليهودية المنسجمة مع حب القتل والذبح والإبادة، ففي هذا السفر أكثر من ثلاثين مذبحة يُجريها يشوع وجماعته بحق السكان الأصليين في أرض فلسطين، وإن كانت هذه المذابح مجرد تخيّل من كاتب التوراة إلا أنها بلا شك تبين مراراً وتكراراً أن رب الجنود يهوه كان هو الذي يقود هذه الجماعات من الرعاع للذبح والقتل.

فإذا كان هذا الإله المدعو يهوه يشكل في العقلية اليهودية قائداً عسكريا محترفاً يخوض غمار المعارك الإجرامية دون أي إحساس إنساني فما بالنا عندما نرى أتباعه وهم ينفذون أبشع المجازر بحق الإنسانية، وبحق كرامة البشر، وحقهم في الحياة.

ليس من المستغرب أن يكون الإجرام اليهودي المعاصر مبرراً من قبل المؤسسة الدينية اللاهوتية باعتبارها تمثل الإله يهوه الذي عرفنا صفاته من خلال سفر يشوع وصموئيل وغيرها من الأسفار، إن من الطبيعي حتى بالنسبة للإنسان الذي لا يؤمن بإله أن تكون لديه أعراف إنسانية وتقاليد تمنع القتل غير المبرر لكن الشخصية اليهودية التي تؤمن بإله خاص جداً اسمه يهوه تصبح رهينة رهبته وأقواله وتعاليمه الصادرة لأنبيائه الخاصّين الذين يقودون اليهود باتجاه الإجرام والإبادة والفتك بالمخلوقات البشرية وغير البشرية، وحسبنا أن نتفحص العقل اليهودي لنرى صورة يهوه الإله وهو يحمل التوراة بيد والسيف باليد الأخرى ذلك السيف الذي يقطر دماً وتحت حدّه جثث أطفال ونساء وبقر وحمير وجمال.

إن هذا يذكرنا بما قاله فلاديمر جابوتنسكي الأستاذ الروحي لليهود المتطرفين حينما قال: إن التوراة والسيف أنزلا معاً من السماء، ولذلك نرى أمثال بيغن وشامير وشارون يقدسونه ويعدونه نبياً من أنبياء يهوه رب الجنود.

ولا تبتعد شرائع التلمود عن شريعة التوراة العبرانية، فالذين شرحوا التعاليم اليهودية هم كبار حاخامات اليهود الأوائل ويعدون أكثر أهمية من الأنبياء باعتبارهم وضعوا التشريع التفصيلي للعقيدة اليهودية.

يقول الحاخام شار: إن الكاهن يمكنه أن يبارك الشعب بتلك اليد إذا كان المقتول غير يهودي، إن قتل غير اليهودي لا يُعد جريمة بل يُعد فعلاً يرضي الله.

ويقول التلمود: أقتل الصالح من غير اليهود، ومحرم على اليهودي أن ينجي أحداً من بقية الأمم من هلاك أو يخرجه من حفرة يقع فيها لأنه بذلك يكون قد حفظ حياة أحد الوثنيين.

وجاء في التلمود: مباح قتل غير اليهودي، القتل أمر واجب عند التمكن من إجرائه، ومن العدل أن يقتل اليهودي بيده كل كافر لأن من يسفك دم الكافر يقرب قرباناً إلى الله.

وجاء في التلمود إن من يقتل مسيحياً أو أجنبياً أو وثنياً يكافأ بالخلود في الفردوس والجلوس هناك في السماء الرابعة.

ويقرر التلمود استحقاقات الموت على غير اليهود لأسباب يُعيدونها إلى تنزيل قدري من الرب.

إن تعاليم التلمود مقدسة كما هي تعاليم التوراة، وقد عد بعض الأحبار أن ما في التلمود أهم مما جاء في التوراة، وعلى من ينتمي لليهودية أن ينفذ تعاليم طبقة الكهنوت وإلا فإنه يخرج على الدين اليهودي.

فإذا كانت تعاليم التوراة والتلمود تتلبس العقل اليهودي تلبساً كاملاً فكيف يكون حاله مع الجانب الإجرامي الإرهابي؟

إن التعاليم التي تنتشر في هذين الكتابين تركز على عقيدة القتل وتجعلها أساسية في حياة أتباع اليهودية، ولذلك فإن الإجرام المرضي يقع في دائرة التبرير الديني، فإذا كان يهوه وإذا كان أنبياء التوراة وإذا كان التلمود إذا كانت جميعها تنفذ تعاليم القتل باعتبارها تشريعاً، فإن ما يقوم به أي فرد يهودي لا يشكل خطأ أو جريمة إذا كان

المقصود به قتل كل من هو ليس يهودياً، ولا يشكل في هذه الحالة ثقلاً نفسياً أو وجدانياً على مستوى الفرد أو التجمع.

أما إذا نظرنا إلى ما خلفه الزعماء الصهاينة منذ أكثر من قرن من تنظيرات حول الإجرام والقتل فإننا نجده صدى واضحاً لتعاليم التوراة والتلمود، فحتى أكثر الزعماء الصهاينة ادّعاءً للعلمانية والكفر بالدين لا يبتعدون قيد أنملة عما جاء من إشارات وتعاليم إجرامية وتوراتية وتلمودية.

فهرتزل أبو الحركة الصهيونية السياسية يدعو إلى جمع الحيوانات (العرب) وإلقاء القنابل في وسطهم.

وبن غوريون لا يؤمن إلا بعقيدة الحرب.

وجابوتنسكي يدعو إلى قتل كل من يعترض على ملكية اليهود لأرض فلسطين، وقس على ذلك جميع زعماء الحركة الصهيونية علمانيين كانوا أم متدينين.

وبنتيجة واضحة نرى أن ثلاثة مصادر للإجرام هي بمثابة مقدسات لدى الفرد اليهودي، تكوّن في العقلية اليهودية دوافع نحو الإجرام، التوراة، التلمود، الفكر الصهيوني، وماذا يمكن إن تكون الشخصية اليهودية من دون هذه المصادر، الإله يهوه قائد عسكري دموي، وكتبة التلمود صفوة الحاقدين على الجنس البشري، والمفكرون الصهاينة خلاصة الإجرام اليهودي الغربي الحديث والمعاصر، فليس غريباً أن يكون الإجرام بأشكاله كافةً جوهر الشخصية اليهودية المعاصرة.

ومع ذلك كله فإننا لا بد من أن نعود إلى ما يسمى أزمة التبرير الديني للإجرام اليهودي، فهل حقاً يشكل التبرير الديني أزمة للإجرام، وهل فعلاً يشكل أزمة للشخصية اليهودية وهي تنفذ أبشع أنواع الجرائم؟

فإذا كان المقصود تخليص اليهودي من هكذا أزمة فإن الاستحالة تخيم بظلالها على كل من يريد أن يفتش عن حل لهذه الأزمة، إذاً كيف السبيل إلى الحل.

يرى بعض المفكرين ومنهم ماركس أن على اليهودي أن يتخلص من يهوديته، ماركس كان يهودياً ويعرف ما هو التاريخ اليهودي وما هو التوراة، وكذلك التلمود، فالدارس لهذه المصادر اليهودية يستنتج أن من يريد أن يكون إنساناً في دائرة الإنسانية

عليه أن يدفن التوراة والتلمود والفكر الصهيوني في صحراء النفايات، وعلى اليهودي إن أراد أن يكون بلا إجرام ولا عنصرية أن ينجو بنفسه من سيطرة عقلية التوراة والتلمود والفكر الصهيوني الأسود، لأن الوقوع تحت سيطرة هذا الثالوث غير المقدس يوقع الشخصية في أزمة نفسية مستعصية على الحل والشفاء.

قد لا نسمع صهيونياً يعبر عن وجود أزمة، وحتى في بعض الحالات قد يفاجأ بعض اليهود حين يسمعون عن أزمة تبرير ديني لجرائمهم، ولعل ذلك عائد إلى كونهم يعدّون ما يحدث أمراً طبيعياً ما دامت حياتهم عبر مئات السنين يتلبسها طابع إجرامي دائم، ولعل الأمر غير الطبيعي أن يعيشوا بلا إجرام حتى لو كان هذا الإجرام نفسياً وعقلياً ولم يخرج إلى حيز الواقع، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن أزمة التبرير الديني للإجرام اليهودي تتفاقم وتزداد ترسخاً ما دام يوجد في التجمعات اليهودية أمثال الحاخام العنصري عوفيديا يوسف، وما دام يوجد بين التجمعات اليهودية من يمثل يهوه الدموي الإجرامي ينفذ تعاليمه وإرشاداته الحربية القاسية.

ويخطئ من يظن أن ما يسمى بالتيار العلماني الصهيوني يرفض يهوه وتعاليمه الإجرامية، وهو لا يرفض تصريحات من يمثله بينهم، فالجميع في الكيان الصهيوني يحترمون عوبيديا يوسف وأمثاله، بل يعدون تصريحاته مقدسة لا تقل قدسية عما جاء في التوراة والتلمود.

إذا فالأزمة مستمرة والإجرام الصهيوني مستمر.

وغبيٌّ من يظن أن اليهودي الصهيوني يمكنه التخلي عن طبيعته وطبعه فهو بُني على الإجرام وتربى تربية دينية عنصرية وسيظل تحت وطأة التبرير الديني حتى يتخلص من يهوديته تماماً وهذا هو المستحيل بعينه.

الإبادة الجماعية

وسرُّ التوافق بين القانون التوراتي والتطبيق النازي

مرة بعد أخرى تُخرج لنا الطبيعة الصهيونية إبداعاً جديداً قديماً في الإرهاب والعنصرية وما أكثر ما كتبنا عن التقاطعات بين هذه الطبيعة وبين النازية والعنصرية حتى بات الكثيرون يقولون: أليس لكم ما تتحدثون عنه سوى هذا الموضوع؟

كلنا أصبح مقتنعاً تمام الاقتناع بعنصرية هذه الصهيونية وممارساتها التي يندى لها الجبين الإنساني.

فماذا بقي لنكتب عنها وهل ما يُضاف على عنصريتها سوى عنصريتها؟

نعم.. فالعنصرية أعلى درجةً في سلم التمييز بين البشر، وأخطر ممارسة في سلم القتل الجماعي، لكنّ تطبيقات هذه العنصرية الدموية التي يطبقها الجيش الصهيوني في فلسطين جمعت وبشكل عجيب بين نص ديني تشريعي توراتي وبين ممارسة نازية حقيقة طبقها جيش هتلر عندما هاجم بولونيا عام (1943) في الحرب العالمية الثانية.

في الطريق إلى مدينة جنين يوم الاثنين والثلاثاء 1 و2 نيسان عام 2002 كان رتل من الدبابات والمصفحات الصهيونية يقف صفاً بانتظار الأوامر الشارونية بالتحرك، ووقف جنود صهاينة إلى جانب هذا الرتل يلبسون على أكتافهم أوشحة تتدلى على الجنبين، حمل كل منهم كتاب التوراة وراح يقرأ فيه ويهزون رؤوسهم المغطاة بالقبعة الصغيرة المعروفة.

لأول مرة نرى مثل هذه الصورة مباشرة على الشاشات الصغيرة ولكن القليل القليل من تنبيه لها ولدلالاتها.

ذكرت وكالات الأنباء أن شارون أعطى تعليماته لوزير حربه ورئيس أركان جيشه بأن يشرحا للجنود الصهاينة ما حدث عام 1943 عندما هاجمت القوات الألمانية بعض الأحياء البولونية، وطلب منهما أن يفهما الجنود بأنه عليهم تطبيق الأسلوب نفسه الذي استعمله النازيون، وكان التطبيق يقضي بقتل جميع من في الأحياء وإبادتهم إبادة كاملة، ويُقال: إن الأحياء البولونية المستهدفة آنذاك كان معظم سكانها من اليهود البولونيين.

بين الصورة الأولى، صورة الجنود الصهاينة الذين وقفوا يقرؤون التوراة بجانب رتل الدبابات وبين التعليمات للجنود الصهاينة بتطبيق خطة نازية قديمة للإبادة أمر مذهل إلى حد كبير.

والتفاتاً إلى الصورة الأولى كان لا بد أن نذكّر كل من ينتمي لهذا العالم العربي الإسلامي أن الكيان الصهيوني يفرض على المنطقة حرباً دينية عنصرية يستند فيها على قوانين توراتية للحرب، ويطبق أبشع أساليب القتل في التاريخ القديم والحديث.

انظروا إلى ما جاء في سفر التثنية وتحديداً في الإصحاح رقم 20 ومن الفقرة 10 إلى الفقرة 17.

(حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفُتحت لك فكل الشعوب فيها يكون للتسخير ويُستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبقِ منها نسمة بل تحرمها تحريماً) (أي: تبيدها إبادة) تثنية 20: 10 ـ 17.

فهذا هو القانون الأساسي الذي وضعته التوراة في التشريعات الحربية لبني صهيون، فحسب هذا القانون هناك نمطان من الشعوب التي يحاربها بنو صهيون، شعوب بعيدة وشعوب قريبة، أما البعيدة فلها قانون يقول: استدعها للصلح فإن أجابتك تسخّرها وتستعبدها، وإن حاربتك عليك بقتل كل رجالها واستبقاء نسائها وأطفالها وبهائمها عبيداً وأرقّاء.

أما الشعوب القريبة فعلى الصهيوني أن لا يُبقي منها أحداً لا من الرجال والنساء ولا من الأطفال البهائم.

هكذا يقرأ جنود الاحتلال هذا القانون، يحفظونه ظهراً عن قلب، وإذا ما نُسيت كلمة منه على الجندي أن يعود إلى التوراة الدموي المقدس ويعيد حفظه وترسيخه في ذهنه، قوات الاحتلال اليوم تدفع بألف دبابة وناقلة جنود إلى مدن الفلسطينيين.

الضرب في كل اتجاه، نساء تقتل في منازلها، شباب يعدمون بالجملة، رجال دين يقتلون، بعضهم كان يقرع جرس كنيسة المهد في بيت لحم، وبعضهم كان يصلي عند مذبح الرب، ومساجد تقصف وتدمر بوّابات الكنائس، يدخلون إلى مباني جامعة النجاح وبير زيت يدمرون ما يدمرون، ويسرقون ما يسرقون، أجهزة الكومبيوتر المتطورة، فهي غنيمة حرب أمرهم الرب أن يغنموها، متاجر للذهب الأجهزة الكهربائية تُنهب في رام الله أغنى مدينة فلسطينية، ثم تقصف بالدبابات وتُدمر جميعها، تُقطع مياه الشرب عن الناس ليموتوا عطشاً، ويمنع التموين الأولي حتى يموت الأطفال جوعاً، تحتجز سيارات الإسعاف تمنع من إنقاذ الجرحى، ونقل جثث الجرحى، ونقل جثث الموتى، وتُدفع بعضها فتنقلب بمن فيها محترقة محطمة، كل هذه الصور يشاهدها العالم على الشاشات الصغيرة والمخفي أعظم، ولكن هذه هي الصور المكشوفة وتلك الصور المخفية ليست سوى تطبيق لذلك القانون التوراتي الذي قرأناه قبل سطور.

أما المفاجأة الأكثر إثارة أن النازية الهتلرية ابتدعت أساليب كثيرة لإبادة بعض الشعوب فالبولونيون من تلك الشعوب التي واجهت حرب إبادة نازية لم يسبق لها مثيل، في بعض الأحياء المكتظة في أطراف وارسوا أُصدرت الأوامر للجيش النازي بإبادة جميع السكان دون التمييز بين امرأة وطفل ورجل مسن وحيوان، أغلقت هذه الأحياء بالدبابات وجنود القوات الألمانية الخاصة، وصبت كل ما لديها من قذائف حتى أن قاذفات اللهب اشتركت في هذه الإبادة.

هذه الطريقة أعجبت كثيراً شارون والقادة العسكريين الصهاينة فبادر شارون إلى إصدار الأوامر ليتعلمها الجنود الذين سيدخلون رام الله وجنين وبيت لحم ونابلس والبيرة وليطبقوها حرفياً كما وردت في مذكرات بعض من عايشوا الحرب العالمية الثانية، وخاصة في بولونيا.

فكم هي المفاجأة كبيرة، قوانين التوراة كانت الدرس الأول للنازية الهتلرية، وتطبيقات النازية كانت درساً عملياً لجنود صهيون، والمصدر واحد والتطبيق واحد

والعنصرية الدموية يتفرد في صنعها النازيون والصهاينة، أليس هذا مدعاة للتأكيد بأن النازية وليدة التوراتية، وأن الصهيونية وليدة النازية.

ولا فصل بين الجد والحفيد فكلها سلسلة وراثية لا تنقطع ولا تنفصم عراها، فهل يعي بنو البشرية هذا الرابط الوراثي الوثيق بين التوراتية والنازية والصهيونية؟

وحتى لا يبقى شاهد على ما اقترفت النازية في أحياء بولونيا فقد اعتقلت جميع الصحفيين والمصوّرين، وقتلت بعضهم ولم يعثر على أي دليل إجرامي يدينهم، وظلت الأحداث أسيرة عقول بعض البولونيين الذين كانوا من البقية الباقية ممن نجوا من حرب الإبادة يروون ما حدث لتتناقله الأجيال.

واليوم تكرر الأساليب النازية في فلسطين، فالصحفيون يمنعون منعاً باتاً من الدخول إلى المدن التي يشن جيش الاحتلال حربه عليها، ومن يغامر منهم يلقى حتفه، ولن ننسى مقتل الصحفي الإيطالي، وجرح صحفيين آخرين، ولن ننسى كيف اعتقلت قوات الاحتلال عشرات الصحفيين والمصورين وأخفتهم في معسكرات لا يعلم مكانها أحد، إنهم يطبقون الدرس النازي فلا يريدون أن تظهر الإدانات، وتُكشف الجرائم، لا يريدون أن يعرف البشر ماذا يحدث في المدن الفلسطينية والمخيمات والقرى.

وحتى يُكتمل الدرس النازي فقد تعلم الصهاينة أن يمنعوا الناس من دفن موتاهم وقتلاهم، فهذا رجل وإلى جانبه امرأته وأمه سقطتا شهيدتين جراء القصف العشوائي لدبابات جيش الاحتلال وبقيتا يومين كاملين في غرفة أمامه وهو يناشد الجميع كي يدفنهما ولا من مجيب، وفي قلب مشفى رام الله لم يعد مكان يتسع لجثث فاضطر الهلال الأحمر وبعض السكان لحفر حفرة في حديقة المشفى وجعلوها قبراً جماعياً يدفن فيه خمسة وعشرون إنساناً، وهناك جثث تتناثر في شوارع خلفية ولا أحد يعلم مكانها، وقد تتفسخ وقد تنتشر الأوبئة لكن جنود الاحتلال قد حضروا أنفسهم لصنع محرقة قد يلقون فيها الشهداء والجرحى والأحياء.

وهذا هو استكمال الدرس النازي الذي درسوه وطبقوه.

وماذا بعد؟

لنعد إلى الأعمال النازية التي طبقتها في جميع بلدان أوروبا، التي وقعت تحت نير الاحتلال النازي، فبضع مئات من اليهود قُتلوا في الحرب مثلهم مثل أي مواطن بولوني أو أوكراني أو يوناني، عذب النازيون الجميع دون استثناء وحرقوا جثث الأموات دون تمييز، لكن الصهيونية التي تعودت أن تطبق قانون الكذب والإرهاب والترعيب ادعت أن محرقة نازية صنعها الجيش الألماني خصيصاً لليهود، وادعوا أن ستة ملايين يهودي راحوا ضحية هذه المحرقة، وانطلت الخدعة على شعوب العالم وابتزت دولها بالمال والاقتصاد وغيرهما وما زالت كذلك حتى يومنا هذا.

فإذا كان الصهاينة يشنون أشرس حرب على ماضي النازية بسبب هذه المحرقة الخدعة فكيف يُقدمون على محرقة حقيقية بحق الشعب الفلسطيني؟

كيف ينتقمون من شعب ليس له علاقة لا من قريب أو من بعيد بما حدث لشعوب العالم جراء الحرب النازية في الأربعينات، هل يصدق عقل أن تتمثل الصهيونيةُ النازيةَ فتجعل من الضحية جلاداً ومن شعب آخر ضحية؟

وإذا كان الصهاينة يفترضون أن اليهود كانوا ضحية النازية فهل يعقل أن يعكسوا الدور فيصبحون هم نازيين جدداً، ويصبح الشعب الفلسطيني تلك الشعوب التي اكتوت بالنازية وإرهابها ومجازرها؟

الواقع يقول لنا: إن الصهاينة يعرفون قبل غيرهم أن يهود أوروبا لم يتعرضوا للإبادة ولا إلى ما يسمونه محرقة، لأن المكتوي بنار هذه المحرقة لا يمكن أن يتمثل دور المجرم خاصة إذا كان أثر محرقته ما يزال موجوداً.

إن الحقيقة الفاضحة تقول لنا: إن النازية والصهيونية صنوان، النازية تعلمت الدرس من نصوص التوراة والتلمود، والصهيونية النازية تمثلت بأساليبها الإجرامية، وكلاهما يستلهم التعاليم والدروس من النص الإرهابي الأول وهو التوراة.

من قال إن الصهاينة يكرهون النازية؟ فلو كانوا يكرهونها حقاً لما تمثلوا أساليبها الإجرامية، ولو كانوا يكرهونها لما أمر شارون قادته العسكريين أن يدرسوا الأساليب

النازية التي استُخدمت في الهجوم على الأحياء المدنية في بولونيا وغيرها من البلدان الأوروبية، ثم يطبقونها على الأحياء الفلسطينية الآمنة المسالمة.

إن ما يحدث في فلسطين هو أندر ما يمكن أن يحدث لشعب في الوجود.

لكنّ للأقدار حكمتها، فاختيار الشعب الفلسطيني ليكون في مواجهة أعتى عنصرية في العالم ليس أمراً عادياً وقد يأتي الزمن الذي نفهم فيه هذه المعادلة وإلى حينها قد نشهد المزيد والمزيد من جرائم الصهيونية الرعناء، ولكنّ النازية المعلم الأول للصهاينة اندثرت وأبيدت، وليس مصير الصهيونية سوى نفس المصير الذي لحق بالنازية، فهي وإن طال الوقت إلى اندثار واندحار.

بين مفهوم حق العودة ومفهومُ أرض الميعاد

من المعروف أن مفهوم حق العودة أصبح من المفاهيم المبدئية الراسخة لدى الشعب الفلسطيني، أو لنقل إن هذا المفهوم لا ينفصل عن النسيج العقلي والنفسي والمادي للشخصية الفلسطينية منذ النكبة عام (1948) وحتى يومنا هذا.

ومن المعروف اليوم أن لجاناً كثيرة شُكلت في إطار هذا المفهوم منها ما هو داخل فلسطين، ومنها ما هو في الشتات الفلسطيني، وجميعها تسعى لتجسيد هذا المفهوم استناداً على قرارات الأمم المتحدة أولاً، واستناداً على معطيات الحقوق التاريخية والوطنية والجغرافية للشعب الفلسطيني.

وحتى يكون مفهوم العودة واضحاً في أذهاننا لا بد لنا من التوقف عند المفهوم في أبعاده الوطنية والتاريخية والدينية.

وكذلك لا بد لنا من التوقف طويلاً عند مفهوم أرض الميعاد لدى اليهود باعتباره شعاراً، وباعتباره جوهر وجود التوجه الصهيوني لاحتلال فلسطين وإقامة الكيان الصهيوني على أرضها.

ومنذ البداية نرى أن حق العودة لو أقرته قرارات الأمم المتحدة لن يتجسد ولن يتحقق من خلال المجتمع الدولي، ولا من خلال قرارات الأمم المتحدة، جميع الأمم والدول تعرف أن قرارات الأمم المتحدة تنص على حق عودة الفلسطينيين إلى أراضيهم وذلك منذ تأسيس هذه المنظمة في نهاية الأربعينات وحتى الآن، وهذا يعني

أن على الشعب الفلسطيني عدم الاعتماد على نصوص المنظمة الدولية لأن هذه النصوص حبرٌ على ورق طالما أن هيئة الأمم المتحدة ألعوبة بيد الولايات المتحدة الأمريكية والغرب والحركة الصهيونية.

على أية حال وبعيداً عن هذه المسلمات فإننا ومن باب أولى علينا أن نطرح على أنفسنا عدة أسئلة تحتاج إلى أجوبة مقنعة.

هل العودة حق للشعب الفلسطيني؟ وما هي أسس هذا الحق؟

1 ـ **على مستوى البعد التاريخي:** الشعب الفلسطيني موجود فوق أرضه منذ سبعة آلاف عام لم ينقطع عنها ولا في أي فترة من الفترات، وحتى إذا سلمنا أن التوراة العبرانية أحد المصادر التاريخية التي سجلت أحداث المنطقة فإنها تورد أن الغزوة العبرانية لبعض مناطق فلسطين لم تستطع أن ترحّل أبناء الشعب الفلسطيني من أرضهم بل ظلوا فيها على الرغم من تواصل الصراع والتدافع بينهم وبين كل الغزوات الصغيرة والكبيرة التي تعرضت لها أرضهم.

وتقول النصوص التوراتية: إن داود ـ عليه السلام ـ عندما أراد أن يعد مكاناً للعبادة اشترى بيدر أحد اليبوسيين ويدعى أرونة اليبوسي، وهذا يعني أن سكان الأرض الأصليين موجودون فوق أرضهم لم يغادروها حتى في زمن التغلغل العبراني لهذه الأرض، وتورد التوراة في سفر القضاة الإصحاح الأول أن أهل بين شان (أي بيسان) وأهل تعنك وسكان دُور وسكان يبلعام وسكان مجدو لم يتركوا أرضهم ـ وتقول التوراة إن أفراد سبط منّسى سكنوا معهم في الأرض.

وتقول أيضاً أن سكان جازر وقطرون ونهلول وعكو وصيدون وأحلب والزيب وحَلبة وأفيق ورحبوب وكذلك بيت شمس وبين عناة ظلوا في أرضهم، وأن أفراد القبائل العبرانية سكنوا معهم، أما باقي مناطق فلسطين فقد ظل سكانها من الفلسطينيين موجودين فيها.

وحين نقرأ التسلسل التاريخي لأحداث فلسطين منذ أكثر من خمسة آلاف عام نرى أن شعب فلسطين وعلى الرغم من كل الغزوات والحروب ظل موجوداً فوق أرضه ولم ينقطع عنها.

ونستنتج من ذلك أن أحد أهم أسس حق العودة التواصل المستمر بين الأرض وسكانها بين فلسطين وأبنائها، وهذا التواصل غير المنقطع هو المستند الأول من مستندات حق العودة، فالغزوة العبرانية إن صحت وقائعها أو لم تصح جاءت إلى أرض معمورة بسكانها، وهؤلاء السكان ظلوا فوق أرضهم على الرغم من الحروب والمذابح والكوارث الطبيعية وغير الطبيعية، وهذا ما لم تستطع التوراة إخفاءه.

ولذلك فإن ادعاء يهود اليوم بأن أرض فلسطين أرض ميعادهم هو ادعاء لا يستند إلى أساس تاريخي، لأن العبرانيين أتوا إلى أرض فيها سكانها بمعنى أنهم جاؤوا غازين محتلين لم يؤسسوا حضارة هذه الأرض بل جاؤوا طارئين عليها، ثم ولأنهم لم يكونوا سكاناً أصليين فيها فقد طردوا منها وظلوا ألفي عام ليس لهم تواجد عليها، وظل أهلها الأصليون موجودين فيها لأنها أرضهم، ومن هذا نرى أن ليس لليهود تواصل مع هذه الأرض.

جاؤوا إليها مستعمرين ثم انقطعوا عنها ألفي عام، فكيف يدعون أن هذه الأرض أرض ميعادهم؟

وهم لم يتواصلوا فوقها منذ غزواتهم الأولى وحتى الآن.

2 ـ على المستوى الجغرافي الوطني: ففلسطين عبر التاريخ لم تنفصل عن محيطها الجغرافي العربي، ولم تشكل وحدها رقعة جغرافية متميزة ومختلفة عن سوريا والعراق والجزيرة العربية، فهي جزء من نسيج جغرافي عربي واحد، ولو توسعنا أكثر نرى أن فلسطين لا يمكن أن تحيا وتعيش بمعزل عن الجغرافيا العربية المحيطة، والواقع أنها وكما هو معروف جزء من منطقة تُسمى بلاد الشام لها جغرافية واحدة، شواطئ واحدة، سهول واحدة، وجبال واحدة، وهذه هي طبيعة المنطقة كلها جغرافياً، ولننظر إلى ساحل بلاد الشام من حدود تركيا وحتى سيناء لندرك أن جغرافيّة المنطقة هي جغرافية واحدة، من حيث التضاريس والمناخ والسكان.

ومن المسلمات أن شعب هذه المنطقة هو شعب واحد لا يمكن لنا أن نقول: إن شعب فلسطين هو غير الشعب الذي يسكن سوريا الحالية أو لبنان أو الأردن، فقد تشكل هذا الشعب واحداً موحداً عبر آلاف السنين فوق أرض واحدة لا تمايز فيها.

فإذا كان اليهود الصهاينة يعتبرونها أرض ميعادهم فيكف يمكن أن يكون ذلك وهذه الأرض جزء من نسيج جغرافي بشري عربي واحد؟

كيف يمكن أن يصدق العقل أن فلسطين أرض ميعادهم وهم بشرياً مختلفون عن طبيعة هذا النسيج العربي الواحد إن كان ذلك في طبيعة تكوينهم الجسدية، أو لغتهم العبرية المطعمة، أو حتى ارتباطهم بطبيعة الأرض، لنتصور ما يسمى أرض (إسرائيل) فهي تجمع ستاً وثمانين عرقاً وجنساً يتحدثون بلغات شتى يختلفون عن كل المحيط العربي في كل شيء، فكيف ينسجم ذلك مع الواقع الجغرافي الكلي وكذلك البشري السكاني؟ لو كانت فلسطين جزيرة بعيدة في البحر لسلمنا بذلك وقلنا: إن لها ملامحها الخاصة المختلفة عن جغرافيتها العربية، ولكن التناقض يصبح صارخاً، ولا ينسجم مع ما يطرحه اليهود الصهاينة مع الواقع الجغرافي لأرض فلسطين.

3 ـ على المستوى الديني: ففلسطين هي الأرض المباركة قرآنياً، والقرآن يخص أمة الإسلام وبمعنى آخر يخص أصحاب العقيدة التوحيدية المسلمين والنصارى الموحّدين.

ومنذ أكثر من ألفي عام وفلسطين تشهد الإسلام الشمولي التوحيدي، والشعب الفلسطيني حمل عقيدة التوحيد منذ أن بشر بها السيد المسيح وختمها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولعل اختيار المسجد الأقصى مكاناً لإسراء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قبل الله سبحانه وتعالى يمنح أبناء فلسطين اتصالاً ما بين السماء والأرض أي: ما بين التوحيد وبين فلسطين، ويمنحهم بالتالي الحق المتواصل في وجودهم عليها باعتبارها تخصهم عقيدياً.

في هذا السياق قد يدعي اليهود أن لأرض فلسطين صلةً بالتوحيد اليهودي وبأنبياء بني إسرائيل، فمن حقهم أن تكون أرض ميعادهم.

وللرد نقول: إن تواجد شعب فلسطين في أرضه سابق على الرؤية الدينية، بل إن الرؤية القرآنية بعد أن استوضحها المسلمون بعد نزول القرآن الكريم على النبي

محمد ـ ﷺ ـ زادت من عناصر حق الفلسطينيين بأرضهم عنصراً هاماً وهو العنصر القرآني.

بينما اليهود كانت رؤى أنبيائهم لاحقة على تسربهم لفلسطين بحيث دفعتهم نبوءات الأنبياء نحو استعمار فلسطين خاصة إذا عرفنا أن التوراة قد دُونت في عصر السبي البابلي، وجميع الباحثين يؤكدون ذلك، ولا سبب يدعونا لإعادة ما قاله الباحثون حول ذلك.

وعلى هذا فإن حق العودة في المنظور الفلسطيني هو حق طبيعي لا تناقض في أسسه ولا التباس في خصائصه.

ولعل مطالبة الشعب الفلسطيني بعودته إلى أرضه ما تزال تتصاعد وتتواتر لأن فلسطين انتكبت منذ خمسين عاماً فحسب، بمعنى أن آثار النكبة ما تزال حية ماثلة للعيان، فالقرى الفلسطينية في كل أرض فلسطين ما تزال شاهدة بحجارتها وبساتينها وشواطئها على أن لها شعباً طبع سماته وخصائصه عليها، وكذلك فإن أكثر من مليون ونصف فلسطيني ما يزالون على أرضها وإن هجّروا عن بعض القرى وتجمعوا في مناطق أخرى منها، والفلسطينيون داخل فلسطين دليل وشاهد حي على التشرد والتشريد الذي وقع على الشعب الفلسطيني، فجميع من بقي في فلسطين لهم روابط مع الشتات وهذه الروابط لم تتعد الأخوة وأولاد العمومة، فكم من عائلة خرج قسم منها وظل القسم الآخر في الجليل أو الساحل، وهذا أيضاً ما يرسخ مفهوم العودة لدى كل فلسطيني، لأن أهله ما يزالون هناك، وما تزال أرضه بحاجة إليه كي يعيش فوقها يزرعها ويعمرها.

وفي الإطار الآخر يطالعنا مصطلح أرض الميعاد الذي لعبت عليه الصهيونية مثلما لعبت على كثير من المصطلحات، فقد أصبح هذا المفهوم جزءاً مهماً من منظومة الأفكار الاستعمارية الصهيونية التي حقنها في كثير من قطاعات اليهود في العالم.

ولما أصبح هذا المصطلح جوهر التطلع الصهيوني نحو أرض فلسطين ارتبط بالصراع العربي الصهيوني الذي بدأ وما يزال محتدماً، وسيبقى ما بقيت الأطماع الصهيونية في أرض فلسطين العربية والأراضي العربية المجاورة.

من أين جاء المفهوم؟

لا شك أن الحركة الصهيونية التي ركبت ظهر التوراة ظنت أن خداعها الديني سيدوم في عقول اليهود قاطبة، وسيستمر فعالاً في العقل الغربي حتى آخر المدى.

وإذا كانت التوراة هي المستند في التركيز على مصطلح أرض الميعاد فإن هذا المستند ينهار أمام حقائق التاريخ وعلوم الآثار والاجتماع والأجناس، ولن نعيد أو نكرر أقوال الدارسين كلهم لهذه التوراة وآراءهم التي تتفق جميعها على أن هذا الكتاب مؤلف من قبل ثلة من المنبوذين المسبيين، وليس له علاقة بأي حقيقة تاريخية أو دينية، ومع ذلك كله لا بد لنا من العودة إلى جذر المفهوم وأصول منشئه حتى نتعرف أكثر فأكثر على كيفية جعله نقطة البدء في تحريك الحركة الصهيونية الاستعمارية.

فبالنسبة للمفهوم التوراتي فإن ما يسمى أرض الميعاد تعرض لتفسيرين دينيين، التفسير الأول يرى أن عودة ما يسمى بني إسرائيل ستتم بعد ظهور المسيح اليهودي، وترى بعض الفئات اليهودية اليوم أن قيام الكيان الصهيوني الحالي هو مخالف لتعاليم الرب ولتفاسير التوراة، وهو منذر بالغضب الإلهي على اليهود، وعندما قام العدوان الصهيوني عام (1967) واحتُلت القدس أقامت بعض الفئات اليهودية مآتم وأحزاناً لأنها اعتبرت احتلال القدس قبل مجيء المسيح المخلص إنذاراً من الله لليهود بأن نهايتهم قد اقتربت.

أما التفسير الثاني فيرى أن ما ورد في التوراة من رموز وإشارات عن عودة بني إسرائيل إلى أرض الميعاد ليست سوى حقيقة واقعة يجب أن تُنفذ إن وُجد المسيح المخلص أولم يوجد، وفي كلتا الحالتين نرى أن المستند مستند توراتي أسطوري، وقد تبنى الاتجاه الثاني أغلبية زعماء الفكرة الصهيونية قبل أن تُشكل الحركة الصهيونية السياسية على يد هرتزل.

فنرى الحاخام اليهودي يهودا القالي (1758 ـ 1878) من أوائل من أخضعوا النص التوراتي الأسطوري للتوجه السياسي الاستعماري ففيما كتبه عام (1862) تحت عنوان الخلاص الثالث يقول: تقول التوراة ارجع يا رب إلى ربوات ألوف

إسرائيل) فتفسيره حول ذلك يستند إلى قوله: إن التلمود يرى أن الشعور بالحضور الديني الإلهي يتم إذا تم وجود اثنين وعشرين ألفاً من اليهود معاً، وكخطوة أولى لخلاص نفوسنا يجب أن نعمل على إعادة اثنين وعشرين ألفاً إلى الأرض المقدسة (أرض الميعاد) وعلى الرغم من أسلوبه المسرحي الخبيث إلا أنه يحاول أن يصنع من الأسطورة عالماً من الواقع فيقول: واحسرتاه هذا الخلاص سيكون مختلفاً بسبب خطايانا، أرضنا خربة ومقفرة ويجب علينا بناء البيوت وحفر الآبار.

ومع ذلك كله فإن الحس الاستعماري لدى هذا الحاخام يطغى على الحس الديني، بل إنه يرى أن الدين اليهودي عاجز عن تخليص اليهود، فيقول: لا تدع أحداً يحل هذه المشكلة، إن الله سيبعث الملاك وقت الخلاص، ويفسر ذلك حسب رأيه بأن الله سيتدخل حينما يتحرك اليهود أولاً، ولن يعيدهم إلههم قبل أن يتحركوا.

ويندرج الحاخام زفي هيرش كاليشر بعد الحاخام القالي في تنظيرات الفكرة الصهيونية تجاه ما يسمى أرض الميعاد، فقد أصدر هذا الحاخام كتاباً تحت عنوان السعي لصهيون عام (1862) استبعد فيه التدخل الإلهي لقيام كيان يجمع اليهود فيقول: إن الرب لن يهبط من السماء متجسداً لكي يحقق حلم الشعب اليهودي، ويتخذ الأسطورة نفسها التي طرحها القالي بأن أرض فلسطين أرض قاحلة وبلا شعب، لكنه في مجال آخر يقترح شراء الكروم والمزارع في أرض فلسطين، وما دامت أرض فلسطين قفراً وقاحلة فكيف يشتري الكروم والمزارع؟ أيشتريها من بشر يقطنونها أم يشتريها من ملائكة الرب الموكلين عليها؟

وعلى الرغم من تسخير نصوص التوراة في هذا الاتجاه الاستعماري إلا أن بعض اليهود اعتبروا قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين لعنة إلهية، وبعض هؤلاء اعتبروا الحركة الصهيونية ملحدة ومهرطقة، لأنها انتهكت ما يسمى بالعهود الثلاثة التي قطعها اليهود للرب قبل خروجهم إلى المنفى، وهي ألا يسببوا الألم للأغيار الذين يقومون بينهم، وألا يحاولوا احتلال الأرض بالقوة، وألا يستعجلوا الأمور.

وقد رأت حركة حراس المدينة (ناطوري كارتا) اليهودية على سبيل المثال أن إعلان ما يسمى استقلال (إسرائيل) نقض أسس قوانين الشريعة لذا رفضت الاعتراف بالدولة وقوانينها، وأعلنت أن أعضاءها لن يهبوا للدفاع عن هذه الدولة لو تعرضت للاعتداء.

ويرى الحاخام عميرام بلوي أن العناية الإلهية أرادت لليهود أن يكونوا في الشتات، ويرى عميرام: أن اليهودية ليست جواز سفر، وأن العالم ليس جغرافيا، وفي الإطار ذاته يرى أحد حاخامات حراس المدنية وهو الحاخام دومب أن الكيان الصهيوني يصيب اليهودية بالأذى، لأن الصهيونية تقول: إن اليهود شعب كالفرنسيين والرومان، إن الصهيونية لا تريد الحفاظ على شيء، فإذا كنا شعباً نمتلك القدرة الإلهية فنحن سنتحرر بطريقة إلهية، وما نحتاج إليه لتحقيقه هو إنقاذ من الله وليس إقامة دولة، على الشعب اليهودي أن يحارب الصهيونية وألا يحاول صبغ الدولة بصبغة يهودية، ويقول: إن هذا المكان (إسرائيل) هو مكان خطر على اليهود.

وكذا يرى الحاخام موشي هيرش أن الصهيونية تتعارض كلياً مع اليهودية، فالصهيونية تريد أن تعرف الشعب اليهودي باعتباره وحدة قومية وهذه هرطقة، فقد تلقى اليهود الرسالة من الرب لا لكي يفرضوا عودتهم إلى الأرض المقدسة ضد إرادة سكانها.

والتلمود يقول: إن هذا الانتهاك سوف يجعل من لحمهم فريسة للسباع في الغابة) وأن المذبحة الكبرى ستكون نتيجة من نتائج الصهيونية، ويقول هيرش: نحن الحريديم نعرّف أنفسنا كيهود فلسطينيين، فالقسم المقدس يخبر الشعب اليهودي على عدم السيطرة على البلاد المقدسة أو أي بلاد أخرى دون رغبة المواطنين الحقيقيين فيها، وأن الصهيونية تدنس المقدسات ومناقضة للديانة اليهودية.

من هنا يمكن للمرء أن يكشف العلاقة بين مفهوم أرض الميعاد وبين البناء الأسطوري الذي دفع باتجاه احتلال فلسطين، وكذلك بين الشعور الداخلي اليهودي بالحزن وبين الحقائق الموجودة على الأرض، فعندما يرى الحاخام دومب أن المذبحة الكبرى ستكون نتيجة من نتائج الصهيونية فهو يرجع إلى بعض التفسيرات التوراتية

التي تقول: إن قيام دولة لليهود على أرض فلسطين إنذارٌ بأن اليهود مقبلون على مذبحة كبرى، فلذلك يرى الكثيرون من اليهود الدينيين أن ما يجري على الأرض من صراع دموي بين قوات الاحتلال وبين الشعب الفلسطيني ليس إلا مقدمات وتمهيد لحرب كبرى تحل فيها لعنة الرب على اليهود.

إن ما يحاول أن يخفيه معظم اليهود هو أن هذه الأرض الفلسطينية التي احتلوها وأقاموا عليها كياناً صهيونياً ليست إلا أرض انتقام من اليهود أنفسهم، فهي أرض دفعتها الأساطير اليهودية التوراتية لتكون بالنسبة لليهود أرض لعنة، وليست أرض نعيم كما صورها زعماء الحركة الصهيونية.

لقد ترددت هذه المقولة كثيراً عندما كان يشتد الرد الفلسطيني على العدوان الصهيوني لا سيما إذا ترافق بإحدى الكوارث التي تحصل بشكل طبيعي من دون تدخل بشري، وكمثال على ذلك حصول انهيار صالة أفراح في غربي القدس سقط فيها ما يزيد على مائة قتيل، وأخفت سلطات الاحتلال ما جرى تفصيلاً فيها، وكرد فعل طبيعي على ذلك فقد كان اليهود يرجعون ما حدث إلى لعنة إلهية حلت بهم، حتى إن بعض حاخاماتهم من الحريديم رأى أن جند الرب ينتقمون من هؤلاء الذين دنسوا حرماته، وانتهكوا مقدساته وقوانينه، ومما يثير القلق لدى الصهاينة عودة بعض اليهود إلى نصوص توراتهم ليعيدوا النظر في قراءتها وتفسيراتها لا سيما قراءة تلك النصوص التي وردت على ألسنة إرميا وحزقيال ودانيال، وفي مجملها لعنات على اليهود وأدعية للانتقام الإلهي منهم، وعودة اليهود إلى مثل هذه النصوص قد تصبح حالة جماعية، وهذا يعني أن اليهود بدؤوا تصوراتهم في المقولات كلها التي تربوا عليها، والتي هي مقولات صهيونية منتقاة لتكون حقنا في الشخصية اليهودية حتى تنفذ رغبات الزعماء السياسيين في استيطان فلسطين واستعمارها إلى الأبد.

لقد بدأ الشك يساور كثيراً من قطاعات التجمع الصهيوني فيما نظرته الصهيونية حول ما يسمى أرض الميعاد، فهذه الأرض اليوم أصبحت مأوى للقتلى، ولم تعد جنة السمن والعسل، وهذه الأرض لها شعبها وليست أرضاً بلا شعب لشعب بلا أرض، إذاً ففي المنظور الصهيوني خطأ كبير وخدعة كبرى لأن هذه

الأرض ليست الأرض التي وعدت بها، وهي ليست سوى لعنة أنبياء التوراة التي تغافل عنها اليهود وتناسوها، وقد تمنى بعضهم لو أنها غير مدونة فيما يسمى الكتاب المقدس (التوراة) ولكنها دُونت وقضى رب اليهود أن يذوقوا نتائج اللعنات التي صبها الأنبياء عليهم.

جاء في سفر إرميا: (سلّمْ بنيهم للجوع وادفعهم ليد السيف فتصير نساؤهم ثكالى وأرامل ويصير رجالهم قتلى الموت وشبانهم مضروبي السيف في الحرب) إرميا 18: 19 ـ 23.

وجاء أيضاً في سفر إرميا: (هاأنذا أجلب عليكم أمة من بعدُ يا بيت إسرائيل يقول يهوه: أمة قوية أمة منذ القديم أمة لا تعرف لسانها ولا تفهم ما تتكلم به، جعبتهم كقبر مفتوح، كلهم جبابرة فيأكلون حصادك وخبزك الذي يأكله بنوك وبناتك يهلكون بالسيف مدنك الحصينة التي أنت متكل عليها) إرميا: 5: 15 ـ 17.

وهناك نبوءات كثيرة تشير إلى أن أرض فلسطين ستكون وبالاً على هؤلاء اليهود الذين انتهكوا حرمات الرب وقوانين التوراة، هي في كل لحظة تدفع اليهود لمراجعتها للتأكد من أنها لعنات تنصبُّ على وجودهم في أرض ليست لهم، ولعل النص التالي من أكثر النصوص التي تهز داخل اليهود وتدفعهم للتفكير ألف مرة ومرة بمصيرهم ومصير احتلالهم لهذه الأرض.

يقول إرميا: (خراباً تكون كل الأرض، ولكنني لا أفنيها من أجل ذلك تنوح الأرض وتظلم السموات من فوق طوفوا في شوارع أورشليم وانظروا واعرفوا وفتشوا في ساحاتها هل تجدون إنساناً أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفح عنها).

ويقول: (هاأنذا جالب عليهم شراً لا يستطيعون أن يخرجوا منه ويصرخون إلي فلا أسمع لهم).

إذن وعلى الرغم من أن دارسي التوراة يرون في هذه النصوص نبوءات لأحداث جرت إلا أن بعض المفسرين يرون أن هذه النبوءات مفتوحة على الزمن لأنها حسب رؤيتهم ترتبط بسلوك اليهود وخرافاتهم.

هي أرض الميعاد فليظنوا ذلك ولكنها ستبقى أرض اللعنة الأسطورية على أتباعهم، وأرض اللعنة النبوية على وجودهم.

بعد استعراض مفهوم العودة لدى أبناء فلسطين واستعراض مفهوم أرض الميعاد لدى الطرف الصهيوني لا بد لنا أن نتوقف عند بعض الأمور الهامة:

1 ـ إن مفهوم حق العودة أو مفهوم العودة حق يبقى في إطار المسألة النظرية، وعلينا أن نحذر من إبقاء هذا المفهوم في إطار التنظير، وأعتقد أن هذا المفهوم إذا أردناه أن ينتقل من التنظير إلى التطبيق فإنني أرى أن نقول: واجب العودة وفرض العودة، فالواجب يستدعي عملياً التحرك السريع لتحقيق العودة، فالعدو الصهيوني لا يهمه كثيراً أن نكرر كل يوم ألف مرة مفهوم حق العودة لأنه يبقى في الإطار النظري، لكنه يهتز ويستنفر عندما نقول: واجب العودة لكل فلسطيني، بل إن فرض العودة يقع على كل من ينتمي لفلسطين، هذا يتطلب العمل المسلح والتربوي والفكري والنفسي حتى يتوازى المفهوم مع مستلزمات تطبيقه.

2 ـ إن حق العودة عندما نفهمه بمعنى الواجب أو الفرض فلا بد من توضيح قيم العودة وأسسها وخصائصها، فالعودة تعني عودة كل فلسطيني إلى قريته تحديداً حتى وإن هدِّمت وهدمت منازلها، فإن الجغرافيا من سهل وجبل وساحل لن تتغير، وهذه العودة تشمل فلسطينيي الشتات برمتهم، وكذلك الفلسطينيين الذين داخل فلسطين وهُجروا قسراً من قراهم إلى مناطق سكنية أخرى.

3 ـ بعد أن عرفنا كل هذه الأسس نعود إلى بعض الأسئلة المشروعة حول قيم العودة فهل حققنا أو هل نسعى لتحقيق ارتباطنا وارتباط أطفالنا بفلسطين أولاً، وبالقرية ثانياً، وبالمنزل المهدم ثالثاً.

هل حققنا ارتباطنا بتاريخ فلسطين وبشكل تفصيلي ماذا علمنا الأجيال عن تاريخ فلسطين منذ سبعة آلاف عام وحتى الآن؟

هل حققنا ارتباطنا بالعودة كونها ترتبط ببعدها الديني العقيدي ببعدها القرآني العربي الإسلامي التوحيدي؟

إذن فالعودة واجب، وحق العودة هو واجب العودة، بل فرض العودة كفرض الصلاة والصوم والحج والزكاة لأن سورة الإسراء تريد منا نحن شعب فلسطين الموحد أن نفهم معنى الأرض المباركة والدفاع عنها واستخلاصها من بين براثن العدو اليهودي الصهيوني الغاصب.